رحـــــلات أنور

مع الدب الاسمر فى سيبريا

سَأَلَ أَنوَرُ الدُّبَّ : « أَيْنَ نَحْنُ ؟ »

فأَجابَ الدُّبُّ الأسمرُ ، وعيناهُ الصغيرتانِ تَلْمَعَانِ من شدةِ الفَرَحِ : « نحنُ فى سيبريا وطنِى ، بجانبِ نَهْرِ آمُورَ ، ونحنُ لا نَبْعُدُ كثيراً عنِ البَحْرِ . » ثم تَأَمَّلَ أنورُ ماحَوْلَهُ . فإذَا هو فى غابةٍ كثيفةٍ ، أشجارُهَا عاليةٌ يَخْتَرِقُهَا نهرٌ واسعٌ .

وَبَيْنَمَا هما كذلك ، إذْ صَاحَ الدُّبُّ : « إِنِّى أَشَمُّ

الدب الاسمر

رائحةَ إنسانٍ ! ! إنَّ حاسَّةَ الشَّمِّ عندى قويَّةٌ جِدًّا ، ولَوْ انَّ نَظَرِى ليسَ حادًّا ، وأَنتِ هو الذى يَهْدِينِى إِلَيَّ حَيْثُ يَكُونُ طَعَامِي ، وَيُرْشِدُنِى إِلَى حَيْثُ يَكونُ عَدُوِّى . وهو يُنَبِّئُنِى فى اللحظةِ الَّتى نحنُ فيها ، أَنَّ إِنْساناً يَقْتَرِبُ مِنَّا ، وأَنَّ النَّحْلَ كَانَ يَصْنَعُ عسلامِنْ عَهْدٍ قريبٍ ، فى هٰذَا المكانِ . وَعَلَى ذٰلكَ أَرَى أَنَّ الأَفْضَلَ لى أَنْ أَذْهَبَ لِأَجْمَعَ ذٰلِكَ العَسَلَ وأَخْزُنَهُ عِنْدِى . »

فَسَأَلَ أَنْوَرُ : « وأَيْنَ تُخْفِي ذٰلكَ العَسَلَ ؟ »

فَأَجابَ الدُّبُّ :

« فى جُحْرِى الَّذِى أَتَّخِذُهُ بَيْنَ الصُّخُورِ ، أَو فى جِذْعِ شجرةٍ خاويةٍ . »

أَنْوَرُ : « وَهَلْ لا تَأْكُلُ شيئاً خِلَافَ العسلِ ؟ »

الدُّبُّ : « إِنِّى آكُلُ أَىَّ شىءٍ يا صديقى ، وأسنانى قويَّةٌ لا بَأْسَ بها . فأنا آكُلُ جُذُوعَ الأشجارِ ، أو الفِيرَانَ ، أو اللَّحْمَ ، وَمِنْ ضِمْنِهِ لحومُ البَشَرِ ، ولوْلَا أَنَّكَ صديقى ، لاتَّخَذْتُ من لحمِكَ أَكْلَةً لذيذةً ! ! والآنَ يَجِبُ أَنْ أَخْتَفِيَ فى هٰذه الغابةِ ! لِأَنَّ « الجِلْيَاكَ »

Gilyaks ، وَهُمْ سُكَّانُ هذا الإقليمِ ، إذَا رَأَوْنِى طَارَدُونِى! لِيَصْطَادُونِى ! الْوَدَاعَ ! ! » قَالَ الدُّبُّ ذٰلِكَ ، وَأَسْرَعَ مُتَوَغِّلًا فى الغابةِ ، وفى لَمْحَةِ الْبَرْقِ كانَ قدِ اخْتَفَى عن عيونِ أَنورَ .

أَمَّا أَنورُ فَتَلَفَّتَ حَوْلَهُ ، فَرَأَى رَجُلًا طويلا يَمْشِى فى الغابةِ ، يَحْمِلُ حَرْبَةً ، وقَوْساً ، وبِضْعَةَ أَسْهُمٍ . وَلَمَّا رَأَى أَنورُ الرجلَ تَقَدَّمَ نَحْوَهُ قائلا : « أَهْلًا وَسَهْلًا ! » فَقَالَ الرَّجُلُ (وكانَ من قبيلةِ « الجِلْياكِ ») : « أَهْلًا بِكَ ! مَنْ أَنتَ ؟ وكيفَ جِئْتَ إلى هُنَا ؟ »

أَنورُ : « لقد أَحْضَرْتُ الدُّبَّ الأَسمرَ إلى وَطَنِهِ . »

الرجُلُ : « الدُّبُّ الأَسمرُ ! ! ولٰكِنْ أَيْنَ هوَ ؟ إنَّ الدبَّ حيوانٌ قوىٌّ وشُجاعٌ ، ونحنُ نَصْطَادُهُ ، حيثُ نَجِدُهُ . وإذَا اصْطَدْنَا دُبًّا جَعَلْنَا له حَظِيرَةً خاصَّةً بِهِ ، وأَطْعَمْنَاهُ لحماً وعَسَلًا . وفى فَصْلِ الخريفِ يَكُونُ لنا معهُ شَأْنٌ آخَرُ . »

فَسَأَلَ أَنورُ : « وَمَاذَا تَعْمَلُونَ معهُ فى الخريفِ ؟ » . فَأَجَابَ الجِلْيَاكِىُّ : « نَذْبَحُهُ لِنَأْكُلَهُ . » فَذُعِرَ أَنورُ ، وَقَالَ فى نفسِهِ : « إنِّى لأَرْجُو أَلَّا يَكُونَ هذا نَصِيبَ دُبِّى . » ثُمَّ خَاطَبَ الرجلَ قائلاً : « أَظُنُّ أَنَّكَ صَيَّادٌ ؟ ؟ أَلَسْتَ كذلكَ ؟ ؟ »

فَأَجَابَهُ الرَّجُلُ : « نَعَمْ هوذَاكَ . فى الغاباتِ أَصْطَادُ الثعالبَ ، والخَنازيرَ والدِّيَبَةَ والغِزْلَانَ ، وفى الأنهارِ أَصْطَادُ الحِيتَانَ ، وفى البِحَارِ أَصيدُ عِجْلَ البحرِ . عَلَى أَنَّ فى بلادِنَا أَشياءَ كثيرةً غيرَ هذه نَأْكُلُهَا . فعندنا بَيْضُ الطيورِ البَرِّيَّةِ ، وكذا التوتُ والذُّرَةُ الذى نَشْتَرِيهِ من التُّجَّارِ الَّذِينَ يَفِدُونَ إلينا من الصِّينِ . تَعَالَ معى لِأُعْطِيَكَ شيئاً تَأْكُلُهُ : »

فَشَكَرَهُ أَنورُ ، بكلِّ رِقَّةٍ ولُطفٍ ، وسَارَ بجانبِهِ . ولَمَّا وَصَلَا إلى القريةِ لاحَظَ أَنورُ أَنَّ الأَكواخَ جَمِيعَهَا عِبَارَةٌ عن قَوَائِمَ خشبيةٍ مسقوفةٍ بخَشَبِ البُتُولَا ، وهى مُبَعْثَرَةٌ هنا وهناكَ . ولكلِّ كُوخٍ سُورٌ عالٍ حَوْلَهُ .

دَخَلَ الصيادُ كُوخَهُ وَتَبِعَهُ أَنورُ . ولم يَكُنِ الكُوخُ سِوَى غُرْفَةٍ واحدةٍ كبيرةٍ ، قد رُصَّتْ فى جوانبها مقاعدُ منَ الخشبِ قد جَلَسَ عليها أَفرادُ الأُسْرَةِ جَمِيعُهُمْ ، وَفِيهِمُ الجَدُّ والجَدَّةُ والأَطفالُ الصِّغَارُ . وفى وَسَطِهَا وِجَارُ كلبِهِمُ الذى يَعِيشُ بينهم لِيَقِيَهُمْ شَرَّ الحيواناتِ المُفْتَرِسَةِ التى قد تَتَسَلَّلُ إليهم منَ الغابةِ .

وبَعْدَ أَنْ جَلَسَ أَنورُ قليلاً ، يَتَجَاذَبُ مع الصيادِ وأُسْرَتِهِ أَطْرَافَ الحديثِ ، قامَ الصيَّادُ وأَحْضَرَ حَسَاءً (شوربة) فى وِعَاءٍ من خشبٍ وقدَّمَهُ لَهُ . وقد شَرِبَهُ أَنورُ ، ولَوْ أَنَّهُ لَمْ يُعْجِبْهُ كثيراً ، لِأَنَّهُ كانَ مَصْنُوعاً من السَّمَكِ واللحمِ والتُّوتِ والصَّنَوْبَرِ والدَّقِيقِ ودُهْنِ عِجْلِ البحرِ ، كُلُّهَا مُجْتَمِعَةٌ ثُمَّ أَخَذَ يَرْقُبُ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الناسِ ،

فلاحظَ أنَّ الرِّجالَ والنِّساءَ، عَلَى السَّواءِ، يَلْبَسُونَ مَلابِسَ مُتشابِهَةً من القُطْنِ الذى يَسْتَوْرِدُونَهُ من الصِّينِ، وَكَانُوا جميعًا يَرْتَدُونَ مِيزَرَاتٍ (سُتَرًا)، واختَصَّ الرِّجالُ بِمَناطِقَ (أحزمة) يَتَدَلَّى منها سِكِّينٌ. وكَانَتْ قُبَّعَاتُهُمْ جميعًا، مَخْروطَةَ الشَّكْلِ، مَصْنُوعَةً مِنْ قِشْرِ شجرِ البَتُولا.

رجل من قبيلة الجلباك

وكَانَتْ تَنْبَعِثُ مِنَ الكُوخِ رائِحَةٌ سَمَكِيَّةٌ نَحْضَةٌ. حتى لقد قَالَ أنورُ مَازِحًا: «لا بُدَّ أنْ يَكُونَ أهَمَّ حَيَوانٍ عندكم السَّمَكُ!!» ولقد كانَ دَهَشُ أنورُ عظيمًا، لَمَّا أجابَهُ الجَدُّ: «نَعَمْ. هو كذلك: فالسَّمَكُ غِذاؤُنا الرئيسيُّ. ونحنُ نَصْطَادُهُ بالشِّصِّ أو بالشِّباكِ، التى تَصْنَعُهَا النِّساءُ بإبَرٍ مِنَ الخشبِ. ونحنُ نَأكُلُ السمكَ طازَجًا، وما يَزِيدُ عن حاجتِنا، نُجَفِّفُهُ، إنْ كُنَّا فى فصلِ الصَّيْفِ، أو نَثْلجُهُ، إنْ كُنَّا فى فصلِ الشِّتاءِ، لِيَظَلَّ صالحًا للأكلِ زمنًا طويلًا. ونوافذُ أكواخِنا الشِّتْوِيَّةِ، تُتَّخَذُ من جلودِ الأسماكِ، وذلك الكيسُ الذى أحْفَظُ فيهِ تِبْغِى، مَصْنُوعٌ من جلدِ السمكِ أيضًا، وأنا لا زِلْتُ أُؤَكِّدُ لكَ أنِّى لَمَّا كُنْتُ طفلًا، كُنْتُ أزيلُ القُشورَ عن جلودِ الأسماكِ، بِمِطْرَقَةٍ خَشَبِيَّةٍ، لأجْعَلَ منها جِلْدًا ناعمًا لطيفًا، نَتَّخِذُ منهُ مَيازِرَ نَلْبَسُهَا فى فَصْلِ الصَّيْفِ. فلا شَكَّ أنَّ السمكَ أفيدُ حيوانٍ فى العالَمِ.»

ولَمَّا انْتَهَى الجَدُّ من حديثِهِ، انْدَفَعَ الكَلْبُ خارِجَ الوِجارِ صائحًا: «وأنا؟ هل نَسِيتَنِى؟» ثم مَالَ برأسِهِ قليلًا، وأسْبَلَ عينَيْهِ، وَبَصْبَصَ بِذَيْلِهِ، وَصَاحَ: «ألَسْتُ أجُرُّ لكم المراكبَ الثلجيةَ التى تَحْمِلُ أمْتِعَتَكُمْ؟ ألَسْتُ أُسَاعِدُكُمْ على قَنْصِ الحيواناتِ البَرِّيَّةِ لتَحْصُلوا على غِذائِكُمْ؟ ألَسْتُمْ تأكُلُونَنِى، عِنْدَ مَالا تَجِدُونَ مَأكولًا سِوَايَ؟ ألَسْتُمْ تَتَّخِذُونَ من جلدِى ملابِسَكُمُ الشِّتْوِيَّةَ، إذا امْتَنَعَ عنكم عِجْلُ البحرِ؟ إنِّى، ولا شَكَّ، نافعٌ لكم، كالسَّمَكِ تمامًا!»

ولَمَّا سَمِعَ أنورُ ذلك أُعْجِبَ كثيرًا بالكلبِ، وَرَبَتَهُ على ظهرِهِ. فَدَخَلَ الكلبُ إلى وِجارِهِ لِيَأكُلَ مَا عِنْدَهُ مِنْ قِطَعِ السمكِ. ثمَّ الْتَفَتَ أنورُ إلى الجَدِّ قائلًا: «إنِّى أظُنُّ أنَّ أشجارَكُمْ لا تَقِلُّ فائدةً عن حيواناتِكُمْ! فأكْواخُكُمْ من الخشبِ، وسقوفُها من شَجَرِ البَتُولا، وأحْذِيَتُكُمُ الثَّلْجِيَّةُ من الخشبِ، ولكم قَوارِبُ من شَجَرِ الأرْزِ أو من شجرِ الشَّرْبِينِ. بل إنَّ صَحافِكُمْ وأوْعِيَتَكُمْ، ومُعْظَمَ ما أرَى فى هذا الكُوخِ من الخشبِ!»

فأجابَ الصيَّادُ : « هذا صحيحٌ ! والآنَ ألاَ تُريدُ أنْ تُرافِقَنا إلى الغابةِ ؟ كُلُّنا على الدَّوامِ نَقْصُدُ الغابةَ للصَّيْدِ ، ولا يتخلَّفُ منَّا إلا الطَّاعِنُونَ فى السِّنِّ ، الَّذِينَ يَظَلُّونَ فى دُورِهِمْ ، ليُؤَدُّوا بعضَ الأعمالِ ، والأطفالُ الَّذِينَ يَعِيشُونَ على لَبَنِ النِّزلاَنِ ؛ وإذا رَغِبْتَ فى الذَّهابِ معنا ، فَحَذارِ أنْ تَضِلَّ الطَّرِيقَ فتَضِيعَ ! إذْ لَيْسَ منَ السَّهْلِ أنْ تَسِيرَ فى مِثْلِ تلك الغابةِ التى تَشابَهَتْ أشجارُها وانْعَدَمَتْ فيها الطُّرُقُ » .

فقالَ أنورُ : « إذا كان الأمْرُ كذلك فلاَ حاجَةَ بى إذَنْ للصيدِ الآنَ . فعندى أعمالٌ كثيرةٌ ، وسَفَرِى طويلٌ ! وأخْشَى إذا صَحِبْتُكُمْ إلى الغابةِ ، أنْ أَضِلَّ بها ، فأتأخَّرَ . الوَدَاعَ ! »

نشيـــــــد القطن

(نظم سليم المسلمى افندى وأحمد على افندى)

كُلُّ جِدِّى وَاجْتِهَادِى ... لَكَ ، يَا قُطْنَ بِلَادِى .
أَنْتَ يَا قُطْنُ عِمَادِى ... وَفَخَارِى كُلَّ حِينْ .
قَدْ زَرَعْنَاكَ بُذُورًا ، ... وَسَقَيْنَاكَ شُهُورًا ،
وَخَدَمْنَاكَ كِبَارًا ، ... بِشِمَالٍ وَيَمِينْ .
كُلُّ جِدِّى . . .
وَأَتَيْنَا الْيَوْمَ نَسْعَى ، ... نَجْمَعُ الْأَثْمَارَ جَمْعَا .
فَلْنَزِدْ حَجْمًا وَنَفْعَا ، ... فِى أَيَادِى الْجَامِعِينْ .
كُلُّ جِدِّى . . .

قُطْنُ مِصْرٍ كَالْحَرِيرِ ، ... نَاصِعُ اللَّوْنِ النَّضِيرِ ،
جَالِبُ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ ، ... نَافِعُ الْبَلَدِ الْأَمِينْ .
كُلُّ جِدِّى . . .
غَزْلُ مِصْرٍ وَالنَّسِيجْ ، ... وَصِنَاعَاتُ الْحَلِيجْ ،
ثَرْوَةُ الْقُطْرِ الْبَهِيجْ ... سَوْفَ تُغْنِى الْعَامِلِينْ
كُلُّ جِدِّى . . . .
أَغْنِ ، يَا قُطْنُ ، الدِّيَارَا ، ... وَامْلَأِ الدُّنْيَا يَسَارَا ،
كُنْ لُجَيْنًا وَنُضَارَا ... فِى جُيُوبِ الزَّارِعِينْ .
كُلُّ جِدِّى . . . .

(انظر صفحتى ١٢ و ١٣)